إرهاب أم منطق التاريخ

بروفيسور عبد الستار قاسم

ما أن انفجرت العبوات في لندن حتى انطلقت الاستنكارات مدوية في كل أنحاء العالم وفي الوطن العربي على وجه الخصوص. هب زعماء دول يشجبون ويهددون، ورجال دين يدينون ويبرئون الإسلام من هذه الأعمال ومن الذين يقومون بها، ومثقفون يحللون ويفندون ويذكرون الثمار الرديئة التي سيحصدها العرب جراء الأعمال التي يصفونها بالإرهابية والإجرامية. والمتابع لوسائل الإعلام، يشتم بسهولة روائح النفاق المنطلقة من عبارات التحذلق والتزلف وكأن أهل الغرب هم عناوين الأخلاق الحميدة الذين تترفع نفوسهم عن الشر والطغيان.

أحاول في هذا المقال القول أن المسألة أعمق بكثير من الرغبة في القتل أو حب الظلام، وأبعد عن أن تكون مجرد نزوات طائشين متطرفين يتعطشون لسفك الدماء؛ وهي ضمن سياق تاريخي موضوعي حتمي ينفصل عن الأمزجة الذاتية والتقديرات الشخصية والمصلحية الآنية. وإذا كنا سنتوارى عن هذا البعد التاريخي فإنما نحن نخدع أنفسنا هاربين من مواجهة الحقيقة التي، إن عرفناها، ستمنحنا فرصة اتخاذ قرار سليم يجنبنا عواقب وخيمة. هنا كان بلير، رئيس وزراء بريطانيا، أكثر المستنكرين حكمة عندما قال أن أسبابا عميقة تقف خلف التفجيرات، وتميز في ذلك بدرجة كبيرة عن الرئيس الأمريكي الذي لا يحمل على لسانه سوى لغة القبضايات (الفتوات). بالتأكيد لن يعجب هذا المقال العديد من أصحاب المسؤولية، لكن العون في قول الحق وليس في "الضحك على اللحى."

التاريخ يكره الفراغ

قال أرسطو في بحر جدله السياسي منذ أكثر من ألفي عام أن الطبيعة تكره الفراغ. الإنسان جزء من الطبيعة، وبالطبيعة هو دائم الحركة، وحركته لا تسمح بالفراغ لأنها جدليا لا تتوقف. الإنسان في تفاعل مستمر مع محيطه بكافة مكوناته، ولا يتوقف عن الإبداع في أشكال وأساليب هذا التفاعل وفق تطوره الفكري الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بطريقة فهمه لواقعه. يقود التفاعل إلى مواجهة العقبات وإزاحة الموانع والسيطرة على المتغيرات، وإلى سد الثغرات أنى وجدت والانطلاق نحو تحسين ظروف الحياة على مختلف أوجهها.

يسارع الإنسان إلى ملأ الفراغ حيثما وحينما يعيه. إنه يطور مصادر غذائه إذا كان الطعام المتوفر غير كاف، ويبني بيتا إذا كان ظل الشجر لا يفي بالغرض، ويطور سلاحا إذا افتقد الأمن. ويعمل الإنسان أيضا على تطوير ما لديه ليرتقي في مستويات توفير الحاجات والاحتياجات. وفي كل الأحوال، تبقى الحركة نقيض الثبات، وهي مالئة الفراغ وصانعة التغيير والتطوير. ولهذا نقول أن الثبات نقيض الحركة، وبطبيعته يحمل نقيضه، ونقيضه هو القضاء عليه لصالح ثبات آخر لا يلبث أن يتغير ويتحول. وهكذا تبقى عجلة التاريخ بين قوة الحريص على ثباتها وقوة الراغب في دورانها. لكن الحتمية التاريخية لا بد نافذة، ولا يبقى على ما هو إلا رب العالمين.

ينطبق هذا على الأمة العربية التي تعيش فراغا تاريخيا كبيرا. يتمثل هذا الفراغ في كثير من نواحي الحياة: الأمية ما زالت واسعة الانتشار، ينتشر الجوع في بقاع واسعة من الأرض العربية، المساهمة في الحضارة العالمية والاكتشاف والاختراع تكاد تكون معدومة، التلقي من الغير يحل محل الإبداع الذاتي. لكن الأهم أن الأمة تعاني من الهزائم على مختلف الصعد، وثرواتها تُنهب وأراضيها تنتهك وأبناؤها يذبحون. واقع الأمة مرير ويتناقض مع طاقات الإنسان الإبداعية وقدراته الخلاقة، بل ينسجم مع التطويع الذاتي والخنوع والإنهاك النفسي الذي يحول المرء إلى مجرد عبد أو مطية.

للإنسان والأمم طاقة محدودة على تحمل فقدان الذات المترافق مع الذل والظلم. يطور الإنسان أو الأمة وعيا نظريا بالواقع القائم، ولا مفر من ترجمته في النهاية إلى عمل ينتقل بالجميع من واقع مرير إلى تطلعات واعدة تنطلق من الجهد الذاتي وفق رؤية مستقلة متناسبة مع واقع جديد يتميز بالطموح. يمهد الشعور بالظلم للوعي النظري الذي يتم التعبير عنه بالكلمات المختلطة بالتردد والخوف، وينتقل من الهمس على المجالس الخاصة، ثم إلى العلن. تزدحم المشاعر وتضيق النفس الإنسانية بوعيها بهبوط قيمتها الذي تواجهه كل يوم. هناك من بين أبناء الأمة العربية من وصلت لديهم درجة الوعي إلى الحد الذي لا يستطيعون معه صبرا. لقد انتظروا طويلا علّ تغييرا محببا يأخذ مجراه، لكنهم رأوا أن التغيرات والتغييرات لا تتجه صعودا، وإنما تكرس التيه والضياع. وبالتالي تطورت لديهم الدافعية الكافية لحمل مستقبلهم بأيديهم بمعزل عن أصحاب السطوة والنفوذ والقرار.

ظلم يأبى التمهل

المعنى أن الحكومات العربية لم تقم بالسياسات المتناسبة مع الطموح العربي البسيط القائل بأن من حقنا أن نكون محترمين بين الأمم وأن نساهم ولو باليسير في هذه المسيرة العالمية التي تتميز بالسرعة والثورة العلمية والزخم التقني. إسرائيل تمعن في قتلها للفلسطينيين ونهب الأرض وانتهاك أراضي العرب، وأمريكا لا تتوقف عن الاستهتار بالأمة واستخدامها مطية ومسرحا لعملياتها. التخلف ينخر عظامنا، والوهن يسري في أوصالنا. تتوالى المناشدات للحكومات، ويتحدث الكتاب والأدباء عن الطموحات والآمال التي سرعان ما تتحول إلى مجرد تمنيات. ينشط المحللون على شاشات التلفاز وعلى صفحات الجرائد والمجلات ويتحدثون عما يجب أن يكون. إنهم يجترون أحاديثهم ومقولاتهم، لكنهم لا يجدون استجابة من صناع القرار.

أما الدول الغربية فلا تريد أن تفقه أن العرب عبارة عن أناس كغيرهم من الناس على وجه الأرض وأن لهم مشاعر وأحاسيس وعواطف وانتماءات ورغبات، الخ. إنها تتعامل وكأننا كقطيع من البهائم أو الغنم الضالة التي لا مأوى لها ولا مطعم، وأن حفنة من الشعير غير المقشر تجعلنا نتدافع لينال منها القوي على حساب الضعيف. منذ أكثر من مائة عام والدول الغربية لا تنفك تدوسنا بالأقدام وتلحق بنا الهزيمة تلو الأخرى والإهانة على إثر سابقتها، وما زالت تسرح وتمرح في بلاد العرب وكأنها إقطاعيات خاصة تقيم عليها مفوضين مأجورين. لقد أعيت أحذيتهم رقابنا، ومزق الرصاص صدورنا، ولم تعد بواطن أرضنا تحمل في الداخل ثرواتنا.

أما إسرائيل فتستمر في طغيانها على اعتبار أن العرب غير موجودين كفاعلين على الساحة الدولية. إنها تتعامل معنا، حسب وصف أحد قادتها، كفئران تضل جحورها حين يصيبها الرعب والهلع، وكأمة من الجبناء التي تتقن الهرب يوم القتال. إنها تتغطرس وتصول وتجول كيفما حلا لها، وتضع أمام ناظريها أمة عربية مترامية الأطراف لا تملك وسيلة إلا الشكوى للأمم المتحدة والولايات المتحدة. تمر عشرات السنين وهي تجثم على صدورنا لا تقوى حكومات العرب على الحراك.

تقول الحكومات العربية أنها تحاول أن تدفع الأذى عن الأمة بنشاطات دبلوماسية ولقاءات ومؤتمرات على الساحة الدولية، ومن خلال العلاقات الثنائية والصداقات مع دول مؤثرة مثل الولايات المتحدة الأمريكية. من الناحية التاريخية، هذه النشاطات لا تفيد ولا تنفع إلا إذا كنا كأمة أصحاب قوة وسطوة وتأثير. بدون قوة، لا يمكننا أن نكون مقنعين، على الرغم من أن قوة المنطق قد تكون إلى جانبنا، وقد يكون الحق لنا. يد الضعيف تبقى هي السفلى على الساحة الدولية، وما يحصل عليه يبقى ضمن دائرة الاستجداء وليس التفاهم أو الانتزاع.

أما حكومات الغرب فتقول لنا أنها تسعى الآن إلى تحرير العرب من نير الحاكمين وذلك بالحرص على حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية. وتحت هذا الشعار تغزو البلاد وتطارد العباد وتقتل الإنسان وتقضي على الأمان. أعمالها العدوانية مستفحلة، ودعمها لإسرائيل متواصل ومتصاعد، وتدميرها في العراق متواصل ونهبها للثروات متسارع. لا ديمقراطيات قامت ولا حقوق إنسان تحققت، وكل ما قدمته في المجال الفلسطيني مجموعة اتفاقيات ومبادرات تجعل من العرب عموما ومن الفلسطينيين خصوصا حراسا على مملكة إسرائيل. إنها ترفض عودة اللاجئين وتلاحق المقاومين وتعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل وتمنح الأموال لها وكل الدعم في المحافل الدولية والمؤتمرات.

من ناحية أخرى، نشاط الحكومات العربية يدور ضمن الواقع القائم والذي يعتبر صنيعة الدول الكبرى القوية وإسرائيل، وهو الواقع الذي تحاول هذه القوى تثبيته إلا من بعض التعديلات التجميلية التي تساعد على الثبات. إنه واقع صنعته هذه القوى لأنه يتناسب مع مصالحها ورؤاها وتطلعاتها نحو المستقبل، وإذا كان لا بد من الحركة فإنها يجب أن تبقى داخله لتعزيزه وليس لتغييره. ينسحب هذا أيضا على الأمم المتحدة التي يعكس ميثاقها مصالح واضعيه. أي أن حركة الحكومات العربية، في أغلبها، تجري داخل الواقع أو النظام القائم والذي هو نفسه التجسيد الواقعي لهزائم الأمة وإذلالها واستغلالها. إنها ليست حركة أمامية وإنما حركة دورانية حول المركز الذي هو سبب المأساة.

لم تصل الحكومات العربية وصناع القرار حتى الآن إلى تقدير أهمية الحركة من أجل تغيير الواقع. بل أن العديد منها/منهم أصدقاء لإسرائيل والولايات المتحدة، ويساهمون في نهب ثروات الأمة وتبديدها، وتطويع الأمة للغير والإبقاء على تخلفها في مختلف الميادين إلا من ميداني الأجهزة الأمنية والبهرجة المظهرية. ولا ينس هؤلاء أن يغلفوا أعمالهم بمقولات الحكمة والعقلانية. هكذا تركوا الفراغ قائما، وتركوا الأبواب مفتوحة أمام الذين يرغبون بالتمرد على الواقع ليصنعوا ما يرون مناسبا إن استطاعوا.

الحكومات لا تستمع ولا تستقيل وتغيب، والأنظمة مستمرة بأساليبها التقليدية سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي. وبالتالي عليها ألا تفاجأ أو تغضب عندما ترى عربا قد حملوا السلاح يقاتلون ويفجرون فيهدمون ويقتلون. هذا فراغ لا مفر من ملئه، وإن لم تعمل الحكومات على سده، فسيظهر حتما من يحاول سده. أبناء الأمة مشبعون بالذل والشعور بالصغار، ولن يجدوا أمامهم إلا طريق التحدي. وبما أن التحدي السلمي يقود إلى الاعتقال والتعذيب والإجراءات القمعية من قبل الحكومات، فإن العنف يبقى سيد الخيارات.

ما يجري في السعودية والجزائر ولبنان يندرج تحت هذا التحليل. مزيد من أعمال العنف ستتطور في البلدان العربية. اليوم في مصر، وغدا في الجزائر، وفي الأردن بعد غد، وهكذا. هنا لا تفيد كل الأوصاف والنعوت التي تلصق بهذه الأعمال مثل الإرهاب والانحراف والإجرام. هذه أوصاف سياسية يبتكرها الحريص على استمرار الوضع القائم، ولن تغير من مسيرة التاريخ شيئا. هناك فعل متمثل بالظلم وهناك شعور بالظلم يولد رد فعل. اتفاقنا أو اختلافنا مع رد الفعل لن يغير من الأمر شيئا، وتبقى عجلة التاريخ بين محافظ مستفيد، ومظلوم يريد أن ينهض.

والغرب لا يريد أن يستمع: أمريكا تصم آذانها إلا عن عبارات تصدر عن منافقين عرب مزورين كاذبين يعادون العروبة الإسلام وكأنهم ليسوا من هذه الأرض، والبريطانيون يمعنون في لحاقهم بالولايات المتحدة وكأنها ستعود تصنع لهم إمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس، والفرنساويون يحملون عصا قذرة من منتصفها يترددون فيما يصنعون. وهم جميعا يقفون صفا واحدا دعما لإسرائيل التي لا تتوقف عن إلحاق الإهانات والإذلال بالعرب وبصورة متعمدة معلنة في وضح النار.

العقل سيد الحل

ماذا أنت فاعل إذا كنت عربيا؟ الأبواب أمامك مقفلة والنوافذ موصدة والحصار حولك يشتد إحكاما وتضيق عليك الأرض بما رحبت. بالتأكيد سيأتي وقت تزأر فيه، ولن تبالي فليس هناك ما تخسره. القطط تدافع عن نفسها، والحشرات تلسع لحماية مكامنها، والزواحف تهاجم من يدوس حياضها، فهل يشذ العرب عن خلق الله وعن سلوك الأمم عبر التاريخ؟ ظني أن أعمال العرب في بدايتها الآن، وأن التنظيمات السرية ستنشط بالمزيد وستطور من وسائلها وأساليبها لتكون أكثر قتلا وتدميرا. إذا كانت التنظيمات تستعمل المتفجرات فستستعمل غدا الكيماويات، وإذا كان البريطاني والأمريكي يستطيعان التجول الآن في الشارع العربي فغدا لن يجرؤ أحد منهما على الظهور العلني.

أرى أن الحكمة تقتضي التوقف بعقلية علمية عند ما يجري، وأن يتم البحث عن الأسباب وتصحيح السياسات الداخلية للأنظمة العربية وسياسة الدول الغربية تجاه المنطقة العربية. التشنج لا يجدي نفعا ولا الزمجرة ولا التهديد ولا الوعيد، بل العقل وحده الذي يرى الأمور على حقيقتها ويستطيع معالجة الأمور. قد تشفي الاتهامات والشتائم الصدور قليلا لكنها لا تحل مشكلة. بلغ العربي من الذل درجة تتساوى فيها الحياة مع الموت، فلا يلومنّ أحد عربيا يفجر نفسه فيمن يرى أنهم سبب كوارثه ومآسيه وأحزانه.